مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی
سالن مرجع

مدن العراق القديمة

Les vieilles Cités de l'Irâq.

كيش (تل الاحيمر)

وعلى من يزور كيش ان يصعد قبل كل شيء الى الزقورة الخربة (تل الاحيمر) فيرى في وسطها المتخذ من اللبن ما يدل على ان الزقورة العظيمة احرقت برمتها ، لان الملاط الصلصالي نفسه مشوي. وهناك نوافذ تخترق التل من جانب الى جانب وقد اصبحت الآن مأوى الثعالب . ويرى بين طبقات الآجر طبقات الرماد الابيض الدال الى هذا اليوم على نوع الحصير المستعمل ، وهو من جنس الحصير الذي يتخذه العرب في زمننا هذا ليعمروا به اكواخهم . (راجع ايضاً ما يخص عقرقوف وبرسبا) .

ويتضح عظم المدينة الواسعة الارجاء ان يجول بنظره وهو واقف فوق قمة برج الهيكل الذي يبلغ اليوم من الارتفاع نحو ستين قدماً . ولكنه كان في حينه اعلى من هذا بكثير . ويمكن اقتفاء اثر اهم مزايا البلدة بمراجعة الخريطة. وطول مدينة كيش زهاء خمسة اميال في عرض ميلين ، ويظهر انها كانت في بادئ امرها مدينتين توأمتين واقعتين على ضفتي الفرات المتقابلتين ، وكان يجري النهر من الفجوة التي ترى بين طائفتي الروابي الرئيستين . وكان هيكل إلبابا وزقورته قائمين على ضفة النهر على نيف ونصف ميل من باب المدينة الغربي . وفحصت الروابي الواقعة هنا وهناك بين ساحة الهيكل وبين موقع الباب فاتضح انها بقايا دور سكنى ، وكانت تتألق في الزمان الذي اعاد ملوك بابل العظام ، ملوك السلالة الاولى ، هيكل الاله الحرب وزخرفوه .

ومن هناك يسير الزائر الى اخربة قصر محصن واقع على مسافة نحو ميل شرقاً في وسط منطقة تجذب الانظار لخلوها من التلول ، ويظهر في اول وهلة انه لا يتوقع شيء فيها . ومع ذلك بعد مرور يومين من هبوط الامطار تبدو في الموقع نفسه عدة ابنية كبيرة بدوا جلياً فوق التراب . ويمكن اذ ذاك اقتفاء اثر

الغرف والدهاليز حتى الابواب والمنزويات ، وذلك لما بين اللبن القديم والتربة المحيطة به من الفرق في الجفاف .

والى اليوم لم يكشف القصر كشفاً صادقاً إلا انه يبدو جلياً ان هناك من الفائدة الخارقة العادة ما لا يخفى على احد ، ولعل الزائر يخيب ظنه بعد الالتفاتة الاولى لما يرى حواليه من الخراب الظاهر . ولكن لو نقب القسم الشرقي من البناء لكشف دهليزاً تحت الارض يمتد على موازاة جدار الحصن في الخارج . وثخن ذلك الجدار اربع عشرة قدماً ، ولعل تلك الازقة اقدم ازقة تعرف من نوعها ، وكانها تبيح للمنفرج بمكنونات غابر عهدها ، وما جرى فيها من الوقائع الخطرة ، والحوادث الروائية ، التي تروق الانسان لما فيه من عواطف الاطفال ، اذ ان هذه العواطف لا تبرح معظم البشر طول حياتهم . ولم يوقع بعد على احد طرفي هذا الممر مع انه حفر فيه ما طوله مئتا قدم . ويرى بين تلول تلك الانقاض المملة ما تحتويه من اسس الابراج المستديرة والبئر الواقعة في الفناء ، والحمامات والبلاليع المقيرة وموائد الطعام وطبقات الرماد الدالة على ان القصر غزي واحرق غير مرة . وباجهاد الفكر بعض الاجهاد ، يمكننا أن نعيد الى مخيلتنا ذلك البناء وقديم مجده وما طرأ عليه من الطوارئ الخيالية وما شاهده من المحاربة والموت . وهو اليوم خراب غريب في موضع مهجور .

وعلى الزائر بعد ذلك ان يعرج نحو الجنوب ليرى الابنية المحفورة في كتلة التلول المرتفعة التي يسميها العرب هنالك « عين غرا » وكان اسمها في القدم « هر سجكالما » ، وترى في ذلك الموطن زقورتان (مفتولتان) ، وهيكلان على اقل تقدير ، وقصر محصن ، وهناك ايضاً ابنية اخر لم يطلع على حقيقتها بعد . واول شيء يستوجب كشفه هيكل عظيم ، لم يحفر منه الى الآن إلا قسم لا غير ، ولا تزال بعض جدرانه قائمة في بعض الاماكن وارتفاعها ثماني عشرة قدماً . وجدد نبو كنراصر الثاني هذا الهيكل في القرن السادس ق . م . ويتضح انه جرت فيه ترميمات غير مرة قبل ذلك الحين ، وفي الحقيقة ان هناك ما يدل على ان الهيكل الاصلي يعود الى زمن قديم جداً ولعله يرجع الى سابق تاريخ

الشمريين. وربما كان الهيكل « إهر سجكالما ». والزقورة الكبيرة من الزقورتين يعودان الى « انينة » معبودة الشمريين والصورة الاولى لاشتر ، إلّا انه لم يعثر الى هذا الحين على برهان جازم يفصح عن الآلهة لمن كانت هياكل هرسجكالما مرصدة .

ويقتضي ان الزقورتين كانتا قائمتين في زمن مجد سرجون الاول ومملكة اكد ، اذ ان قلبيها اتخذا من الآجر المسطح المقبب . واهمل استعمال هذا النوع من الآجر بعد اخضاع الساميين للشمريين . وقد ظهر ان الزقورة الكبيرة جددها سرجون نفسه واعاد وجهها بالآجر المربع الضخم الذي كان يستحسنه .

وبعد ان يدور الزائر حول الزقورتين يأتي الى بناء كان نقب فيه المسيو « دي جنوياك » سنة ١٩١٢ . وتثبت انواع الآجر المبنية به الجدران العالية ، ان هذا البناء جدد ايضاً عدة مرار . ويظن انه جزء من هيكل (?) « لانينة » وستكشف حقيقته بعد تنقيب يمعن فيه . كما انه يعتقد ان الهيكل الذي تعود اليه الزقورة الصغيرة واقع في رواب كبيرة مجاورة لها .

وفي جنوبي هذا الهيكل ، وعلى قرب منه ، يرى خليط من التلول هي انقاض تدل على موضع القصر المحصن العجيب لملوك كيش ، وربما كانوا من السلالة الثانية ، وبني ذلك القصر واضيف الى بناء فترك قبل ٣٠٠ ق . م ، واذا جال الزائر بين الروابي وقف بغتة على فناء دار رحيب ، امام وجهه بناء يذهل الناظر اليه ، وهنالك درج عريض ومنخفض ذو اربع عشرة مرقاة . ولم يبق منها شيء غير اللبن ولكن ينبغي انها كانت في بادئ امرها مكسوة بمادة اصلب ، ولعل تلك المادة كانت النحاس الاحمر ، اذ يظهر انه كانت للشمريين كمية وافرة من ذلك المعدن . ولا ريب في انه كان لصف العمد القائمة في أحد اطراف الفناء منظر هائل حينذاك . كما انه لا يشك في ان تلك الاساطين الشامخة كانت مغشاة بالمعدن ، او يحتمل انها كانت مرصعة بالصدف والمحار ومحفورة في الحجر الكلسي على شكل يرى في القطع التي عثر عليها في الغرف المجاورة لها ، وتلك القطع على جانب عظيم من الرونق والاتقان تروق الالباب . (راجع المحفورات في تل العبيد) .

وينجلي كل الانجلاء للجوابة الخبير ان هذا القصر العظيم اكتسح واحرق وربما حدث ذلك في سقوط السلالة التي اضافت الى القصر جبهته القائمة على العمد . وهناك ما يدل دلالة لا ريب فيها على ان حماة الحصن دافعوا دفاع الابطال وما زالوا يقاومون الاعداء مدة طويلة ويتنقلون من غرفة الى اخرى، واقاموا الموانع هنا وهناك بسرعة بعد ان اقتحمت اسوار القصر المحكمة التحصين .

ووقع على صفيحة صغيرة من حجر الكلس في احدى الغرف فيها من اقدم خط الشمريين المعروف ، وهي محفوظة الآن في المتحفة في بغداد . وتعود رسومها الرمزية الى زمن اقدم من زمن ذاك القصر ، ويجوز انها اذخرت كذكرى منقولة أو كمطرقة من حجر .

وقبل مغادرة هذا الموقع المفيد يجب زيارة مسكن النساخ المنهدم الواقع على ربع ميل من غربي القصر . فقد عثر على عدد كثير من الصفائح اللغوية والنحوية والدينية في دور متخربة من عصر « إسن » وعصر بابل الجديد . وكثير من تلك الصفائح مسطر على شكل دفاتر هذا اليوم ، والبعض منها ملقى في الازقة الضيقة ، وفي ذلك ما يذكرنا بان في تلك الايام القديمة نفسها كان الاولاد الصغار يذهبون الى الكتاب على رغم من ارادتهم .

والى ما وراء ابنية هيكل « هرسجكالما » تنساب تلول واسعة الامتداد وتتصل بتخوم المدينة الشرقية . وربما كانت تلك الروابي بيوتا عديدة للمأوى ، وفيها ما يبين انها سكنت الى زمن الفرس وعصر الفرثيين . ولكن لم يقم احد بتنقيب هذه المنطقة تنقيباً منظماً .

وقد استفيدت فائدة جليلة جمة من الحفريات التي قام بها في اخريات الايام . الاستاذ « لنغدن » المدير العام لبعثة كيش ، في محل يسمى « جمدة ناصر » على خمسة عشر ميلا من الشمال الشرقي . ولا جرم ان هذه الاخربة ترجع الى ما يسبق تاريخ الشمريين . والآجر هنالك قائم الزوايا . ولكنه يختلف كل الاختلاف عن الآجر الذي حل محل المسطح المقبب . والخزف المطلي يشبه نماذج الخزف القديمة جداً التي كشفت في السوس وميشان في عيلام .

بابلو (بابل) ـ (هي بابل المذكورة في التوراة : سفر الملوك الثاني ١٧ : ٣٠ ودانيال ٤ : ٣٠ الخ) . وهي على مسافة ٥٤ ميلا من بغداد في السيارة . واما من الحلة فعلى ثلاثة اميال .

يقال ساكن الاسد الوزغة حيث كان يعز جمشيد ويشرب . (بيت شعر فارسي)

لاترى مدينة من المدن يصح فيها قول الشاعر الفارسي كما يصح في بابل، لما يرى فيها من الخراب الهائل الموحش، واللبن المحل بوحدة لونه . فلقد انقرض الاسد الآن من ارض الرافدين ـ إلّا ان الحاكم التركي في الحلة اهدى الى « لايرد » في نصف القرن المنصرم اسدين كانا آخر نوعهما في هذه الديار ، بيد ان الضبع والثعلب يحلان محل الليث . وهناك ارانب صغيرة تسرح على الروابي التي يعلوها الغبار .

ولو خرقنا بفكرنا الستار الحالي ، ستار الخراب السائد في هذه المدينة ، وعبرنا تلك الايام حين كانت بابل في ابان مجدها وذروة عظمتها في عصر نبوكدراصر الثاني ، لرأينا مزايا عجيبة في اكوام اللبن المتراكمة وربما ظهر فيها بعض الرونق .

ومن يزر بابل المرة الاولى يرتبك في منطقة الاخربة الفسيحة التي تكاد تتشابه في الحجم واللون ، وعليه يشار على الباحث ان يباشر مشاهدة هذا الوطن القديم آخذاً بكويرش ، وهي قرية صغيرة يسكنها الاعراب في يومنا هذا . وواقعة على ضفة النهر ، وسكنها الاثري الالماني « الدكتور روبرت كولدواي » مدة تنقيبه الطويل الذي بدأ به في سنة ١٨٩٩ وانتهى عند نشوب الحرب العظمى ويقع تل القصر في شرقي القرية تواً . ويتضمن ذلك التل اهم ابنية المدينة الجليلة التي كاد يعيدها نبوكدراصر كلها لتكون آية لمجده وجلاله (دانيال ٦ : ٣٠) وهناك طريق آثار اقدام تمتد من جانب التل الشمالي فتمر بالزاوية الشمالية الغربية من جدار المدينة الداخلي الى ان تؤدي الى اسد بابل الشهير الواقع على مرتفع صغير محاطاً بغدران مملوءة قصباً . وهذا الاسد متخذ من البصلد وهو كبير واقف فوق رجل مضطجع .

ويرى على قرب من ذلك الاسد الطريق المقدسة ، وهي طريق مرتفعة

معتدلة كانت في حينها مبلطة بقطع كبار من حجر الكلس . وكان يسار عليها بالالهة في كل رأس سنة باحتفال جليل فتنتقل الى هيكل مردوك المسمى « إي ساجلا » اهم هياكل بابل .

وكان يقوم على جانبي الهيكل جدران فيها رسوم السباع الهائلة بحجم طبيعي واسود وثيران وحيوانات خرافية محفورة حفراً تتألق فيه الالوان الزاهية ومصنوعة باتقان فاق به الحذاق البابليين سواهم. وكان في الجانب الايمن قصور وفي الجانب الايسر هيكل « نن مخ » إلاهة الامهات ، وكانت النساء تنذرن لها التماثيل بشكل والدة وابنها لتمن عليهن بولد .

ويحسن بالزائر ان يلاحظ عند مروره بباب اشتر اقيسته الخارقة العادة، ذلك الباب الفخم الزاهي الى هذا العهد مع انه في حالة خربة . ولا جرم ان هذا الباب بابان لان جدار المدينة الداخلي كان مزدوجاً . ويحتوي ذلك الباب على ما يشبه فناء وسطاً ناشئاً من تشييد جدار في كل جانب منه يمر الواحد بالاخر . وارتأى بعض الثقات ان دانيال حين القي في جب السباع كان هذا الجب الخندق الواقع بين الجدارين وكانت السباع فيه معتقلة (دانيال ٦ : ١٦) . ولباب اشتر طبقتان . وكانت الطريق المقدسة تمر بطبقته العليا المزخرفة بالحيوانات بحجمها المألوف ومنحوتة نحتاً محكماً والمدهونة بالوان بديعة . واما الطبقة السفلى فكانت غرفاً وآزاجاً تحت الارض ، وكثيراً ما تشبه السراديب التي يسكنها اهل العراق في عصرنا هذا ، وهم يشيدون بعضها تحت الارض هرباً من حر الشمس اللافح في القيظ . ويرى ايضاً في ذلك القسم من الباب حيوانات منحوتة ولكن يظهر انها لم تلون قط .

وتل القصر كله الواقع في شمالي باب اشتر وجداره كتلة من الآزاج المتداخلة وكلها متهدمة ، ويتعذر الوقوف على خطة البناء الاصلية . ولكن كانت تقوم في هذا التل قصور « نبوبلصر » وقصور نجله نبوكدراصر الثاني ، الذي حاز من الشهرة ما يفوق شهرة والده .

وقد سعى الالمان ههنا سعياً محموداً حتى انجلت لهم رسوم الطبقة الارضية من الاقنية الواحد بعد الآخر فضلا عن رسوم عدة غرف محاطة بها . ويدعون ان في

هذا التل كانت « الجنان المعلقة » الشهيرة المعدودة من عجائب الدنيا السبع ، وكان في التل ايضاً غرفة عرش نبو كدراصر التي ظهرت فيها لباشصر اليد المنبئة الكاتبة على جدرانها (دانيال ٥ : ٥) قبل احتلال كورش الفارسي تلك المدينة (٥٣٩ ق . م) بيد انه لا يرى فيه ما يفصح عن عظم بابل في سابق عهدها سوى عقود الابنية التي كان عليها بناء ضخم فضلا عن رسم ردهة انهدمت جدرانها منذ زمن طويل فاصبحت تراباً .

وتنحدر الطريق المقدسة الى ما وراء القصر شيئاً فشيئاً فتمر بهيكل اشتر و « تل المركز » ، وهو اخربة دور سكنت في عدة عصور ، ويقع هذا التل على يسار القصر ، ثم تنعرج الطريق انعراجاً قويماً فتتجه نحو «تل عمران». وتمكن المنقبون الالمانيون من ان يقعوا هنالك على رسم الطبقة الارضية «لاي سجلا» هيكل الاله القهار مردوك بين خليط كثير من اللبن والانقاض . ولكن لم يبق شيء الآن ينطق بجليل مجد ذلك الهيكل الذي امر حورب ان تدون شرائعه فيه على صفيحة حجر عظيمة . وبعد سبعة عشر قرناً عقد فيه قواد الاسكندر مجلساً بعد وفاة زعيمهم . ويرى الى شمالي الهيكل كل ما بقي من « أنتمن انكي » « دار حجر اساس السماء والارض » ، وهي برج بابل العظيم ذو الطبقات السبع الواقع الان في حفرة كبيرة يغمر الماء قسماً منها في الشتاء ، وهو من غريب الاتفاق .

ويمتد من هيكل مردوك ممر يؤدي الى مركز الجسر الذي كان يجمع قسمي بابل احدهما الى الآخر وكلاهما راكب ضفتي النهر . ولا تزال اسس ادعمة الجسر ظاهرة في ثغور عقيق النهر القديم وكان واقعاً في شمالي تل عمران على ما يرى اليوم وقوعاً قاصداً . ويتسنى للجوابة الواقف فوق هذا التل ان يطلع على وضع الاخربة العام ، ومن ثم يسير الى المسرح اليوناني المشيد قبل موت الاسكندر في بابل (٣٢٣ ق . م) بنحو سنتين ، ولسوء الحظ لم يبق من المسرح المتدرج شيء غير خطته الخارجية .

ويمكن اقتفاء اثر خطوط جدران المدينة من قمة « تل حميراء » القائم على شمال شرقي المسرح وبالقرب منه . ويبلغ محيط الجدار نحو عشرة اميال وكان

محكماً احكاماً خارق العادة . وفي الحقيقة كان عريضاً جداً ، اذ نقل عن هيرودوتس انه كان يتيسر لعجلة تجرها اربعة رؤوس خيل ، ان تدور في الطريق الواقعة بين صفي ابنية ذات طبقة واحدة قائمة على حافتي سطح الجدار .

وعلى مسافة قصيرة من الاخربة الرئيسة وشمالها داخل الجدار الخارجي تواً ، يرى تل بابل ، وهو بقايا القصر المحصن الذي بناه نبو كدراصر لمحافظة المدينة حين يهاجمها عدو من الجانب الشمالي . ووضع نبو كدراصر نظام دفاع عظيماً لانه كان يخشى دائماً غزوات الماديين ، ومن ضمن ذلك النظام سور منيع كبير ترى اخربته الى هذا الحين على خمسة عشر ميلا من جنوب شرقي سامراء ، وهناك ايضاً حصن « سفر » وهو سور آخر يمتد نحو كيش ، وفضلا عن ذلك كانت لديه وسائل تمكنه من ان يغمر الاراضي ما حوالي بابل فتحول دون العدو . (راجع ما يخص اوبس وسفر) .

ويتطلب تدوين تاريخ بابل مجلدات طوالا ، مع ان المدينة حديثة العهد بالنسبة الى كثير من بلدان سهل شنعار المجاورة لها . ومعظم تاريخها حروب واضطرابات ، وحربها لاشورية لم تنقطع البتة ، وكانت اشورية خصم بابل في الشمال ، وقد سلبت بابل مراراً واحرقت ، واختطف الاله مردوك من هيكله (راجع ما يختص باشور ونينوى) . بيد ان بابل اصبحت في ازمنة الصلح مقر الديانة والعلم والفلسفة ، فضلا عن انها كانت موئل التجار ، وكانوا يؤمونها من ديار شاسعة ، وتبرز ثلاثة ازمنة من تاريخ بابل بروزاً جليلا وهي :

عرفت سلالة بابل الاولى بحكم حمورابي العظيم . ولها اليد البيضاء لما اوجد من الشرائع التي انتفع بها العالم نفعاً جماً يقدر حق قدره .

عظم شأن بابل بعد ذلك حين حكمت سلالة « فاشي » (١١٦٩ ــ ١١٠١ ق.م) فتلالا نجمها في اثناء سلطنة نبوكدراصر الاول . اذ ان هذا الملك فاق فوقاً عظيماً حكم ملوك كيش الخامل . لانهم ملكوا في بابل زهاء ستة قرون ولم يتمكنوا من ان يقهروا جيرانهم الاشوريين القهارين في الشمال . ولكن سلالة « فاشي » دانت لعزم « تغلث فلاشر » الاول وقوته (راجع مايختص بأشور) ورزحت المملكتان تحت حمل غزوات الارميين في الشمال مدة تقارب القرنين .